أدب الشباب

بقلم محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم

لا نكاد نجد عصراً تزاحم فيه الشباب على شرعة الأدب كعصرنا هذا الذى تتهم فيه اللغة بالضعف والانحطاط . وقديماً كانت ميادين الأدب لايصول فيها إلا الشيوخ ومن قاربهم ، وكانت المنابر الأدبية وأنهار الصحف حبسا عليهم دون غيرهم ، لايطمح اليها من الشباب إلا أولئك الموهوبون ، الذين لايخلو منهم زمن من الأزمان ، وكان من يتاح له ذلك من الشبان معدودا من نفحات الزمان .

وما أزال أذكر ذلك اليوم الذى مضى عليه أكثر من عشرين عاما وقد أعددت فيه قصيدة فى حريق ألمّ ببلدة « سلامون القماش » وأقدمت على نشرها فى الصحف العامة ، فلما قبلتها مجلة « السفور » ، ونشرت بعض أبياتها ، ملأت الغبطة جوانب نفسى ، وعددت فى ذلك الوقت مغامرا حين طوعت لى نفسى أن أخوض ذلك المعترك ، وأطرق باب الصحف العامة .

نعم كانت أحوال الشباب العامة والخاصة لاتشجعهم على التنافس والتماس العظمة من طريق النشر فى الصحف ؛ وكان لهذا أثره البالغ فى كبت مواهبهم وصدودهم عن ميادين الأدب إلا لسماع محاضرة أو قراءة صحيفة ، وقليل ذلك .

أما اليوم فماذا نرى؟ لقد انفسح أمام الشباب مجال الأدب ، ورُوخي لهم فى حبال الحرية ، بعد ما اهتز العالم كله عقب تلك الحرب الضروس

العامة ، فصارت الحال غير الحال ، وبدلت النفوس غير النفوس ، وكان للشباب من كل ذلك أوفى نصيب .

لقد أصبحنا نقرأ المجلات والصحف العامة فإذا هى تفيض بآثار الشبان : من بحوث فى الأدب ، وآراء فى الاجتماع ، وألوان من الشعر ، وفنون من الجدل . وإذا هى تنوه فى كثير من الأيام بدواوين شعر الشباب ، فلا نكاد نقرأ ديوانا إلا لنستقبل غيره ، وقد تتوالى الدواوين فى العام الواحد ، بل فى الشهر الواحد ؛ وكل منها ينافس الآخر بما يحمل من اسم طريف ، وطبع أنيق ، وافتنان فى أغراض الشعر وأساليبه ، ومحاولات عنيفة فى سبيل السبق وإدراك الغاية . ولقد صرنا نشهد كثيرا من المناظرات الأدبية ، والاجتماعية ، فإذا طرفاها من أدباء الشباب ، وإذا أكثرهم لا يزالون طلابا ، وإذا التنافس يشمل الشبان والشواب . أما المحاضرات العامة والخاصة فلهم فيها جولات كثيرة .

تلك صورة عامة لأدب الشباب فى هذا العصر ، وإنها لصورة يغتبط بها رجال الأدب ، ويرتاح لها أنصار اللغة . وقليل من التشجيع والإرشاد يجعل منها أساساً وطيداً لنهضة من أعظم النهضات فى تاريخ الأدب العربى .

لا ننكر أن فى أدب الشباب نواحى يعوزها الصقل والتهذيب ، ولكن أى أديب بدأ حياته كاملا ؟ وأى غرس نجم قويا سامقا ؟ فليمض الشباب فى سبيلهم ، وليطلبوا المثل الأعلى فى اتزان وروية ، وليقبلوا النصيحة الخالصة بصبر وارتياح ، وليتخذوا من الماضى دعائم للمستقبل ، فإنه لا يثبت بناء لا أساس له ، ولا يقوى على هوج الرياح إلا الدوحة القوية المعرقة ، ولا تنهض أمة تنخلع من ماضيها ، وإن لنا فى الأمم القوية الأخرى لأمثلة تحتذى ، وما أمتا الإنجليز واليابان عنا ببعيد .

فى كثير من شعر الشباب نواح تحتاج إلى العناية والتهذيب ، يرجع

بعضها إلى اللفظ ، وبعضها إلى الأوزان والقوافى ، وبعضها إلى الموضوعات والمعانى . وما أحوج أولئك الشبان إلى النقد الرفيق ، والنصيحة الهادئة ! وذلك فى اعتقادى خير علاج لما فى شعرهم من ضعف ، وأقرب طريق للقضاء على تلك النزعة الممقوتة ، نزعة التناكر والتنافس بين الشبان والشيوخ ، فإنها نزعة وخيمة العاقبة ، أقل ما تعقبه وقوع التباغض والتقاطع بين المشتغلين بالأدب ، واتساع مسافة الخلف بين المثقفين بالأدب العربى الصميم ، والناشئين فى هذه البيئة التى اختلفت ألوانها ، وتشعبت مسالكها ، وافتتن فيها كثير من الناس بتقليد الأدب الافرنجى فى جميع مظاهره ، وفى ذلك ما فيه من انصراف الشبان عن قراءة الأدب العربى ، وطبع بيانهم على غراره ، زهدا فيه ، أو مكابرة وعنادا . وفى الشباب عدة المستقبل وهم الماضون فى قافلة الحياة ، وهم القائمون على أدب الجيل القادم ، رضينا أم سخطنا . فخير لنا وللأدب أن نشجعهم فى غير تفريط ، وأن نظهرهم على كنوز الأدب ، وأن نعمل على توثيق صلتهم به ، حتى يعكفوا على درسه ، ويقفوا على مافيه من محاسن ، وبمثل هذا يخدم الأدب ، وبه نأمن العثار .

لست اليوم فى مقام الناقد المستقصى ، وإنما أجمل مآخذ هذا الشعر فيما يلى :

١ — الأوزان :

لا يزال كثير من الشبان الشعراء ومن إليهم يعكفون على الموشح والمزدوج ، وقد يكون الدافع إلى ذلك ما يجده الشاعر المبتدئ من صعوبة القافية لقلة زاده من متن اللغة ، وعدم درسه لكثير من مطولات الشعراء فى الجاهلية والإسلام ، ومادرى أولئك الذين يعولون على الموشحات فى جل أغراضهم أنها لم تخترع فى الشعر العربى إلا للغناء ،

وإذا خرجت عن هذا الغرض فبالقدر اللائق الذي لا يجعلها تطغى على بقية الأوزان . وأحب أن يعلم الشعراء أن لكل مقصد من مقاصد الشعر بحورا تلائمه ، ومن توفّر على درس الشعر العربى لا يخفى عليه ذلك ، على أنى أحمد الله الذى صرف الناس عن تلك الفكرة التى ملأت بعض الرءوس وقتا ما ، وكانت تروّج لنبذ القافية . والخلط بين الأوزان العروضية على صورة أسمّوها (مجمع البحور) . وفى اعتقادى أن خير علاج لهذه الحال أن يحبب الأدب العربى إلى النفوس بالإكثار من عرض صُوَره الرائعة ، وطبع نفائس شعر القدامى والمولدين ، وإعادة طبع أجمل المختارات الشعرية (كديوان الحماسة لأبى تمام) فى صورة رائعة مهذبة الشرح ، سهلة التناول .

٢ — القافية :

بعد هذه الخصومة بين الشبان والقافية عادوا إلى سلوك الجادّة ، فأخذوا ينظمون من البحور المأثورة ، ويلتزمون القافية ، ولكنهم أسرفوا فى التزام القافية ، وأطالوها أيما إطالة ، حتى جاء بعض القوافى قلقا نابياً يكاد يفقد الروعة الشعرية ، ويتجرد من النغمة الموسيقية . ومن الخير ألا تطول القصائد إلاّ حيث تسهل القوافى ، وليس طول القصائد فى كل وقت دليلاً على الشاعرية ، بل قد يكون بعض القوافى سببا لإسقاط القصيدة أو دليلا على ضعفها ، ومتى غزرت مادة الشاعر اللغوية ، وكثر اطلاعه على الأدب العربى ، صارت القوافى أكثر مطاوعة له ، وأصبح تطويل القصيدة مظهرا من مظاهر النضج الشعرى .

٣ — الموضوعات والمعانى :

قد يكون طبعيا أن يكثر جانب الحب والغزل فى شعر الشباب ، فإن لهم من نشأتهم واحتدام شبابهم باعثا قويا لا يمكن إغفاله ، ولكن الذى لا يرتضيه الناقد البصير أن يستسلم الشبان لهذه النزعة فيطغى سيلها على

جنبات شعرهم، فإذا أكثره — عند بعضهم — فى الحب والغزل، وياليته برىء مع ذلك من كل ما يعيب الشعراء، إذًا لهان الخطب وارتقبنا أن تنقضى هذه الظاهره بانقضاء عهد الشبيبة المحتدمة، عهد غلبة العاطفة واحتدام الوجدان؛ ولكنا نلمح فى كثير من شعر الحب ضعفاً واستخذاء إذا اتسع لها الأدب وقتا ما فما أجدره أن يضيق بهما فى عصرنا الحاضر، ذلك العصر الذى أخذ كل شىء فيه بأسباب النهوض، وجنح كل شعب فيه إلى القوة يلتمسها من طريق العلم والأدب. وهل نسى شبابنا الشعراء أن الشعر أقوى أسرًا، وأشد أخذًا، فهو من هذه الناحية أبلغ أثرا فى نفوس الشعب، يطبعها بطابعه العام. فما أجدر الشعب فى نهضته بكل أدب قوى! والقوة كما تكون فى الوصف وشعر الطبيعة تكون فى الحب والغزل، ويستطيع المحب والغزل أن يعرضا عواطفهما فى صورة قوية لا يجد القارىء فيها مغمزا، ولا يستولى الضعف على جميع أجزائها.

وهنالك ظاهرة أخرى لا تقل وضوحا عن سابقتها فى شعر الشباب، ولا تقل أثرا عنها فى توهين النفوس، وتفتير العزائم، هى ظاهرة التشاؤم التى كثرت ألوانها فى شعر كثير من الشبان، فهى — مهما يكن لها من روائع فى هذا العصر — باعث من بواعث اليأس، وداع من دواعى الفتور، وباب من أبواب الوهن، وقد تكون سدًّا منيعا دون قوى المغامرة والمنافسة وعوامل الانتاج فى الأمة، وهى مهما تكن بواعثها لون من ألوان الحياة إذا جاز ألا يخلو منه الأدب فشعر الشيوخ المجربين أولى به.

لا أريد أن أطيل فى هذا الموضوع فقد طال الحديث فيه، وتناوله النقاد بما لعله يصرف الشبان عن التعلق به رفقاً بأمتهم، وضنًّا بعزائمهم أن ترمى بالوهن والفتور أمام لأواء الدهر وصروفه، وما أحوج الأمم إبّان نهضتها إلى كل شعر يهون شاق الحياة، أو يصورها — وان كان

لا بد منه - فى صورة لا تبعث الونَى والقنوط ، بل تصغّرها فى عيون الناس حتى لا تكون عثرة فى سبيل الحياة .

وثمة ظاهرة ثالثة فى شعر الشباب ، هى محاولة سوق الحكمة وإرسال المثل ، ولا اعتراض لى على هذه الظاهرة إلا بما قد يكون فيها من تكلف وتعسف . وفى اعتقادى أن الحكمة نتيجة التجارب الطوال ، وهى بشعر الحكماء المجربين أولى منها بشعر الشباب . على أنه لا مانع من التمسك بهذه الظاهرة ، إذا كان فى المستطاع إضافة شىء جديد على كنوز الحكمة المأثورة ، أما أن تكون صورةً لحكمة سبقت فأمر لا يخسر الشعر شيئاً بفقده ، فأولى للشبان أن يتوفروا على ما هم بسبيله من شعر الوصف والوجدان ، والقصص ، ووصف النفوس ، وتسجيل الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، وتوجيه النفوس نحو المثل العليا وكل غرض يضيف ثروة طارفة على معانى الشعر ويساير قافلة الحياة ، ويبعث الآمال فى النفوس .

محمود البشبيشى

ننشر هذه الكلمة القيمة راجين أن يتابع الأستاذ البشبيشى بحثه هذا بما ينتظره القراء فى الأعداد المقبلة من الامثلة المختلفة ، يفصل بها ما أجمل فى هذه المقدمة البليغة . والعارفون بمدى اطلاع الاستاذ ، ومقدرته على تصوير أفكاره ، يترقبون على صفحات « صحيفة دار العلوم » شيئا كثيراً . « صحيفة دار العلوم »